المشرق

السنة الستون — تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٦٦

المسيح جامع البشرية والكون

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي
استاذ اللاهوت لدى غبطة البطريرك الماروني
والخبير في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

انتصر المسيح الإله على الموت وفي يده تاريخ الكون والبشرية يديره ويوجّهه إلى هدف ناله بدمه : كان الهدف نفسه الذي سنّه الخالق منذ بدء العالم ولكن طالما صرفه الإنسان بخطيئته عن سيره الطبيعي وشوّش معناه.

أتى الكلمة متجسّداً ليحمل بمحبة لا نهاية لها الكون والانسان ويعود بهما إلى ما أراده الخالق لهما غاية لا تردّ : الكمال في الرؤيا. فصار التجسد محوراً ، اليه تسير الأجيال السابقة ومنه تستمدّ الأجيال اللاحقة قيمتها ، وكأنّي بها صلةٌ بالتجسد تستنير بنوره وتعيش من فيض معانيه روحانيةً شفّافة. ولذا فالتجسد هو الحدث الفريد ، لا تستطيع فصله عما سبقه

ومتمماً مجده. يتطوّر في الفداء وتكمله القيامة والجلوس من عن يمين الآب. وفي هذا التطوّر يصطحب المسيح الإله عالماً وانسانيةً يحييها بنعمته ويعطيها من غزارة رئاسته كياناً ومكانةً. ولن تتضح معالم ذلك العالم وتلك الإنسانية الا بالعودة الدائمة الى تجسد الكلمة: اذ المسيح نهاية كل شيء وكمالُ كل شيء ونور كلّ شيء. حسب قول القديس ايرناوس اذ نبّه «ان المسيح هو كلمة الإله الضابط الكل الذي يقوم في بحضرة غير منظورة ويملأ الكون ويتابع تأثيره في طول وعرض وعمق العالم اذ ان كل شيء تأثر بالفداء طالما صُلب ابنُ الله عن كل شيء ووسم كل شيء بوسم الصليب»[١]. ويزيدنا القديس يوحنا الذهبي الفم اذ يقول إن الله أقام المسيح رأس الخليقة كلّها بما فيها الملائكة. وعلى هذا الشكل نصير الوحدة ويتم الاتصال عندما تكون الأمور كلها منظّمةً تحت رئيس واحد وتقبل من علُ رباطاً لا يحل»[٢].

علينا ان نوضح في قسم اول دور التجسد والفداء في وحدة البشرية والكون وتجديدهما مع المسيح وبه. وفي قسم ثان نحلّل دور القيامة إلى ان نصير في قسم ثالث إلى تحليل دور البشرية في ذلك التجديد وتلك الوحدة التي رأسها المسيح.

*

القسم الاول

مشكلة واحدة اساسية تعترض الانسان في تفكيره الديني: من هو المسيح وما دوره في العالم في ارادة الله الخلاصية. ما معنى التجسدّ الالهي؟

يحلّل الانسان الطبيعة والكون ويعود فيكتشف بعقله ما يدهش العقل نفسه ويتساءل إذّاك: ما معنى هذا بالنسبة الى المسيح وما معنى المسيح بالنسبة الى العلم وتطوره واكتشافاته.

وان لم يكن السؤال واضحاً في معالمه كلّها فهو على شفاه الجميع، وان انكرت الشفاه وجود الله وألوهية المسيح. «لقد تغلبت ايها الناصري». مات جوليان الملحد ومات نيتشه الملحد. والمسيح هو هو محور حياة الإنسان على ممر الأجيال يتمركز في الضمير فيخلق الحيرة المفيدة ويظلّ القلب حائراً إلى ان يثبت فيه على حد قول اغسطينس.

---

١) *Demonstr.*, c. 34

٢) *Hom. in Ep. ad Eph.* 1/4., PG. 62/16

أتى المسيح الاله ليخلّص الانسان من الخطيئة . ولكن أيكفي الفداء ليعطينا التحديد الوافي لذلك الحدث الفريد في التاريخ . ولكن ليس هذا مدفنا اليوم . تتطلع اليوم الى معنى ظهور المسيح في بشريتنا . ولعله هذا صدى : علينا ان نتتبع الاثار لنرى كيف يجمع ويجدد فيه كل ما لنا وكل ما نكون .

بنعمة الاتحاد الاقنومي : اي اتحاد الطبيعة البشرية في المسيح بالاقنوم الثاني . الكلمة . تتحد الطبيعة البشرية جوهرياً بشخص كلمة الله . وكيانها اذاك من كيان الكلمة الإلهي الى حدّ أن لأعمالها الطبيعية المتعلّقة بخلاص الإنسان قيمةً الهيّة .

وهذا الاتحاد يعني ملء وكمال النعمة الحالية والعطايا الإلهية . بسه تشترك الطبيعة البشرية بالطبيعة الالهية بصورة فائقة وان كانت عرضية . وتصير تلك النعمة الأساس فيها للاعمال الفائقة الطبيعة . وفي هذا فان الطبيعة البشرية تتوصّل إلى اعلى قمة تستطيع الوصول اليها وتكون لله بكل مقدورها متجهةً اليه كغاية مطلقة وغاية مطلقة فائقة الطبيعة .

والمسيح : بما أنه في طبيعته البشرية لله تماماً : فانه ايضاً لجنسنا بصورة فائقة الى حد أن فيه كل كمال يستطيع الجنس البشري ان يناله على الصعيد الروحاني ، والى حدّ أنّه في هذا رأس البشرية جمعاء « الذي هو صورة الله الغير المنظور وبكر كلّ خلق لأنّه به خلق جميع ما في السماوات وعلى الأرض ، ما يُرى وما لا يُرى ، عروشاً كان او سيادات أو رئاسات او سلاطين . به واليه خلق الجميع وهو قبل الجميع وبه يثبت الجميع لأنه فيه رضي الآب ان يحل الملء كله وان يصالح به الجميع لنفسه مسالماً بدم صليبه ما على الارض وما في السماوات » . (كولسي ١/١٥–٢٠) . (فيلبي ٣/٢٠–٢١ . الرؤيا ٢١/٥ . رومان ٨/١٩–٢٢) .

ولأن المسيح متحد بالكلمة فهذا الاتحاد يجعل من طبيعته الفردية مجموع الأفراد على حدّ قول أغسطينس : إن المسيح ليس فرداً بين أفراد البشرية : هو وحدة الأفراد وخلاصتهم . وبهذا له ان يجمعهم وان يتكلم باسمهم وان يقدّم الذبيحة عنهم وان يجذبهم جميعهم بكمال هو مصدره الى ان يصير الله الكلّ في الكل .

فاذا كان التجسد يمجد الله ويعطي الخلق مكانة إذ لولاه لما كانت الخليقة استعادت وجه الله وحبّه بعد الخطيئة.

إذا كان التجسد يمجّد الطبيعة البشرية التي اتخذها المسيح ليصير واحداً منا ويغدق علينا بالاتحاد الشخصي من فيض النعم الآتية :

فانه وان كان خلاصياً فلا يحد بالفداء فقط. ولكنه خير الانسان اساساً صار الكلمة جسداً وحلّ فينا. صار الاله انساناً : يقول اباؤنا بالإيمان. كي يصير الإنسان الهاً. ولذا فعنى التجسد هو تأليه الإنسان.

أراد الله ان يُغني فقرنا بالخلق وان يعطينا نفسه في التجسد وبهذ يظهر التجسد مجد الله لأنه ينبئنا عن كرمه نحو الانسان ولقد اودع طبيعة المسيح البشرية كلّ النعم لتصير مصدرها وموزّعتها وبالتالي ليكون الرأس دوماً في خدمة الأعضاء لا كخادم ولكن كمصدر قوة ونعمة وخير. فيشترك إذاك المسيح بعظمة الله الحقيقية الذي يتمجد بأن يظهر محبته بعطاء لا حدّ له.

فتجسد الكلمة كي يكوّن بشرية جديدة تتألف من ابناء الله وتتجدد كلما في سيرها إلى هدفها زادت حيوية بحيوية أعضائها وتمسكاً بمن يمدّها بتلك النعمة التي تجعل من الانسان ابناً لله بالمسيح وفي المسيح. وهذا ما يجعل الاله المتجسد بكر هذه البشرية الجديدة فيستطيع إذاك ان يقول ان الله أعطاه كل شيء وأقامه ملكاً على كل شيء.

وما المسيح بكر البشرية الجديدة تلك ، الا لأن له ميزة الإبن بصورة لا يعادله فيها احد. وليست له تلك الميزة الا ليشركنا بها بقدر ما يستطيع الانسان ان يريد ذلك ، وان يتقبله بانصياع كلّي وحرية صادقة. وليست طبيعة المسيح البشرية بغنية الا لتعطي ملء النعمة التي لها كي تكسب الانسان من صعيد الطبيعة الى صعيد الحياة الدائمة. ولقد نلنا بذلك من نعم الابن فيضاً جعلنا أبناء الله.

ولذا فبنوّتنا تقارب بنوّة الابن لأنها تستمد حقيقتها من بنوّة المسيح الإله ولأننا نتوصّل الى القول أن ليس هناك الا ابن واحد وهو المسيح والبقية الباقية ، اي نحن ، لسنا ابناء الا فيه وبه. ولا تمكن أنّ في العالم نعماً تزيد على حياة المسيح او اعماله. نعمنا ليست الا بشركة نعمة المسيح الرئاسية ولذلك فالمسيح الاله هو ، في طبيعته البشرية ، الانسان

الكامل . الابن الوحيد . وما تبقّى فأتمّهم ابناء بالتبني . بالاشتراك بهذا الانسان بقدر ما هم واحد معه فيجمعهم تحت تأثير رئسته ويقرّبهم في الحياة . التي هي في فيه وفيهم . فيه كمصدر ومعين وفيهم كمشتاق من الآمال .

فبهذه النعمة نبقى في المسيح وهو دوماً بها حاضر فينا وتصير حياة المسيحية إذاك حياةً في المسيح بسرعة على حد قول بولس الرسول . حياةٌ هو جوهرها . حياةٌ هو ينبوعها . حياةٌ هو مصدر نموّها وازدهارها . ولذا فليس لنا من طريق مباشرة إلى الآب . نمرّ بالمسيح وهو الوسيط الذي يجمع فيه آمالنا وأحزاننا وأفراحنا إذ به وفيه ذا القيمة فيرفعها إلى الآب ويعيدها لنا مقدسةً أمينة .

هذه النعمة : نعمة المسيح . تجعلنا اعضاء في البشرية الجديدة . لا تلك الخاطئة التي انفصلت عن الله . ولا تلك التي أبناؤها عبيد الله . ولكن بشرية ابناء الله لأنه هو فيها البكر وحياته تفيض علينا . وفي هذا البكر جاذبية لا يستطيع التخلّص منها الا من بحرية تامة وبمعرفة كاملة جنى على نفسه برفضها مفضلاً الانكماش والموت على التفتّح والنموّ الطبيعي والروحي : ونعلم حقّ العلم ان الخطيئة تهدم كياننا وهي تود لو تهدم وجود الله اذ انها تقطع الصلة بين المسبّب وسببه والمعلول وهدفه الغائي فيظل الانسان إذاك مأرجحاً فوق هوّة العدم إلى ان يعود فيرعوي ويؤصّل كيانه في من هو سبب الكيان .

٥

ان تلك الصلة الوثيقة بالمسيح الإله جعلت بولس الرسول يدعوه الآدم الجديد . فكما ان الآدم الأول كان رأس البشرية الخاطئة : هكذا المسيح هو رأس البشرية الجديدة : وكما ان الولادة الجسدية هي مصدر خطيئة للبشرية جمعاء : كذلك الالتحاق بالمسيح هو مصدر عدل واستقامة وحياة وخلاص . ولذا فالمسيح ليس عضواً من اعضاء تلك البشرية وينبوعها : هو البكر مطلقاً : يعطينا الخير المطلق : ينبّه خواطرنا إلى الحق المطلق ويسير بنا موجّهاً وسانداً يغدق النعم التي تقوى على الخطيئة لأنه ظفر بالخطيئة وانتصر عليها وصار بقيامته روحاً محيية .

نقول هذا وفي اعتقادنا ان المسيح ليس فقط ذلك الذي فتح للبشرية باب النعمة وسهّل لها السير اليها : ولكنه المعين لأنه الابن وله البنوّة

بكامليا . هذا فتأثير المسيح الإله علينا أقوى وأصدق من تأثير آدم فيتزعنا من ذرية آدم ليقيمنا في ذريته ويجعلنا ورثاءه : ورثاء فيه لأننا فيه صرنا ابناء وورثة بالنعمة أي إخوة الوارث الطبيعي الوحيد .

فلا مندوحة إذاً للانسان . إذا فتش عن كمال . من ان ينظر دوماً الى المسيح بدء وكمال المجموع البشري والكوني . لا مندوحة له من أن يفهم أن في التجسد ثبات كيانه إذ المسيح : بكر البشرية الجديدة . هو الانسان والإبن الكامل الذي لنا فيه صورة البشرية الجديدة الصحيح . ولنا في حياته المثال الكامل للحياة البنوية .

ولئن فكرنا بالفداء والخلاص الذي اختاره المسيح بموته على الصليب فانا نرى ان احد الأسباب لذلك الاختيار كان في ارادة الفادي ان يكون على اكمل وجه بكر البشرية الجديدة وبصورة علنية . لم يكن المسيح بحاجة الى تطهير أو الى تعويض عن نقائص ارتكبت : انما اراد ان يمر بالموت وان يسبقنا بالألم ليكون في هذا ايضاً بكر البشرية الجديدة وبالألم الى القيامة حيث تنتهي آلامنا ومصاعبنا . ولقد نؤكد أن المسيح الإله لم يعد إلى مجده الأصيل من عن يمين الآب كالابن الازلي فحسب إنما صعد الى السماء بكامله اي كبكر البشرية الجديدة . فهو الرأس : والجسم يتبعه . لنا في طبيعته البشرية الممجدة عربون تمجيد جسد البشرية ، جسد اولئك الذين قد عاشوا معه وبه كابناء الله .

انما لن نستطيع ان نقف عند هذا الحد . فنعمة الاتحاد الشخصي في المسيح الإله خميرة في العجين ، خميرة في البشرية جمعاء . قوتها تصل إلى الجميع وتطلب إلى أفراد البشرية كلها ان يختاروا بحرية تامة الالتحاق بالمسيح ، فهم كلهم إخوته ولا يستطيع الإبن ان يفصل نفسه عن بشرية اتحد بها شخصياً ، ولهم فيه الحياة الغزيرة التي بدونها لن يعيش الانسان ، والتي بدونها لن يتمم الانسان اعماله ، والتي هي ميزة التجسد الأساسية .

٥

في هاتين النقطتين الاخيرتين السر الذي خفي في الله منذ إنشاء العالم والذي ظهر بالكلمة المتجسد ، سر جمع البشر كلهم في الابن الوحيد بعيد سيرهم وفي سيرهم الى الخلاص ، تصطحبهم النعمة وتهديهم سواء السبيل ، ولكل إنسان في المسيح المقام المعد له اذا ما ترك سفسطات العالم

والحق مخيّراً بالمسيح ذاك . الذي بدونه يظل العقل في ظلام وظلم ويكون القلب فارغاً: مشماً . ولقد عبّر عن ذلك بولس الرسول في كتابه الى اهل افسس مؤنّباً ومشجعاً اذ قال : « فلذلك تذكّروا انتم الذين كانوا حيناً أمماً في الجسد مدعوّين قلفاً من الذين يدعون ختاناً في الجسد من عمل اليد انكم كنتم حينئذ بغير مسيح أجنبيين عن رعويّة إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد بلا رجاء وبلا إله في العالم . اما الآن فانتم الذين كانوا حيناً بعيدين قد صرتم في المسيح يسوع قريبين بدم المسيح لأنه هو سلامنا هو جعل الاثنين واحداً » (٢/١١–١٤) . لانه لحياتنا المسيحية البيئة التي تغذّي والجوّ الذي يحيي إلى ان يتم يوماً ما قاله أغسطينس : في الابدية لن يكون الكل الا مسيحاً واحداً يرى الله بعين واحدة . في هذا كمال البشرية الجديدة وبها كمال الكون ، إذ المسيح كائن جماعيّ فيه تجتمع الأمم المصالحة بالدم الخلاصي . فهو ليس اذاً ذاك الذي يقرّبنا إلى الله وبعد ذلك يختفي . في تأثيره المستمرّ علينا سبب استقامة مسيرنا وتوحيدنا في إرادته الصادقة .

=

فكرة واحدة عبرنا عنها إلى الآن : ان المسيح صار بالتجسد رأساً للبشرية الجديدة ووسيطاً بينها وبين الله . وكرأس قام المسيح بدوره الاساسي الا وهو جمع الأعضاء في جسم واحد وتسيرهم الى الهدف باعطائهم الحياة والنعمة . واذا ما ما جمع الاعضاء في جسم واحد بعد ان انتصر على الخطيئة وسمّرها على الصليب فانه يجمع بهذه الاعضاء وفيها ـ اذا تنزّهت عن الشطات والخطيئة ـ الكون كلّه اذ يجعلها وسيطة بينه وبين الكون المادي الذي يرتّل مجد الله بشفاه بشرية ويعود الى هدفه بان يصير في تطوير مستمرّ أرضاً جديدة وسماوات جديدة .

لقد ملأ بولس الرسول صفحات رسائله من فكرة وحدتنا وتجديدنا مع المسيح وبه . فالخلاص الذي يولينا إياه المسيح الاله ليس خلاصاً يعطيه لأفراد تكاثر عددهم وتفرّقوا وصاروت اليهم منحة الخلاص والسعادة تعادل تشنها هنا وهناك . الخلاص واحد نسير اليه ونصل اليه سويّة مجتمعين متكاتفين . فالبشر جسد واحد لأن رأسهم واحد وهو المسيح . هو فيهم مبدأ التضامن والتكاتف والأخوّة والوحدة والتجديد . فاذا ما زال هذا المبدأ

انفرط العقد وتفرّق الإخوة وضاعوا وكانوا كجسم انسحبت منه الحياة فتفكّك وذاب. فالمسيح يجمع ويوحّد ويجدّد.

ه

القسم الثاني

لقد تكلمنا على التجسد ودوره في ارادة الله الخلاصية بالنسبة الى الانسان ولكن فيبقى علينا ان نقول في القسم الثاني ما هو دور القيامة. انتصار المسيح الإله على الموت وجلوسه من عن يمين الآب.

ه

لا نعير القيامة عادة الأهمية الواجبة ولا نعطيها المعنى الواجب: تلك القيامة التي هي سر عميق وحالة المسيح المجدّد. ولكم فكّرنا بها وكأنها حدث فردي لا تعلّق له الا بالمسيح وحده: وكأنها انتصاره على الموت وعلى اعداء صلبوه: وكأنها دخوله في مجد أبدي وفرح لا يزول بعد ان تألم ومات.

لا بأس اذا فكّرنا هكذا ولكنّ هذا التفكير لا يفي سرّ القيامة حقه من التأثير على الكون والبشرية.

ه

قلنا في ما تقدم ان لأسرار المسيح، بما أنه الآدمُ الجديد: معنى لسنا عنه بغرباء. فالمسيح الاله: الكلمة المتجسّد: بصفته الآدم الجديد: لا يقوم بأمر يتعلّق به وحده فحسب: إنما كل اعماله تنال إخوته بالبشرية. ولن نفهم المسيح اذا حصرناه في فرديته، بعيدًا عن الذين اتى إلى الارض محبةً بهم: بعيدًا عن الذين أراد ان يكوّن منهم ومعهم جسده البرّي. فقيامته اذاك تفوق العجيبة وتفوق حدثاً يشهد للقوة الإلهية بالانتصار على الموت. ولذلك فلا نستطيع ان نضع قيامة المسيح على صعيد قيامة ابنة يائير من الموت او قيامة ابن ارملة نائين او قيامة لعازر التي لها في انجيل يوحنا معنى فريد. فقيامة المسيح ليست انتصارًا فرديًا للمسيح وحده. قيامة المسيح هي قيامة رأس المخلّصين الجددين، قيامة الآدم الجديد. فلها من جرّاء ذلك قيمة شاملة ومعنى كونيّ. ولا مندوحة لنا من درسها وتحليل مغزاها.

ه

لا غرو إذا ما حتى بطرس الرسول المسيح المنتصر على الموت حجر الزاوية الوحيد : الذي فيه خلاص الكون. ولا غرو اذا كانت الأناجيل الإزائية تلحّ على قيمة القيامة ومعناها في خلاص الانسان والكون. فهي لا تدلنا فيما على نهاية حياة المسيح الأرضية. انما تعطي ما سبقها مغزاه. اما بولس الرسول فحدّث عنه ولا حرج إذ انه تكلم على القيامة الى حدّ أنه اتهم بعدم التعرّف الى المسيح الأرضي. فالمسيح المنتصر هو في نظره وحدة الكون وهو الذي يوحّد البشر مع الله ومع بعضهم البعض. ويذهب الى القول : اذا المسيح لم يقم فتعليمنا فارغ. لا باطل فحسب لأنّ الكلمة اليونانية κενος تُترجم بفارغ. بدون محتوى. بدون مادة.

اما يوحنا الانجيلي فانه يدعو المسيحَ القيامة والحياة وهو بهذا سبب انتصار قديسيه على الموت الأبدي.

*

انتصار المسيح على الموت نهائي. فالمسيح لن يموت وبهذا يُعطي البشرية والكون اللذين يسيران اليه طابع الثبات بين ضوضاء الحياة وتقلباتها إذ ان اسرار المسيح ليست اسراره وحده إنما هي اسرارنا نحن : فيما تلتقي وعلى غرار الرأس تكون الأعضاء. فهو المثل الذي نقتدي به وهو البدء الذي يمهّد للكمال فينا وهو المعين الذي يغدق النعم ليتم انتصار كلّ من يتّحد به ويلتحق به.

في القيامة يصير الجسد روحانياً مجدّداً. وكما متنا مع المسيح على الصليب أقامنا الله معه واجلسنا في السماوات معه.. فحيث يكون الرأس هناك تلتقي الأعضاء ولكنّ هذا اللقاء ليس بعيد فحسب ولكنه منذ هذه الحياة عربون القيامة العتيدة. يكفي للانسان ان يسير برضاه في تيار الروح الذي تكوّن بالتجسّد وتكمّل بالقيامة كي يعيش كمنتصر على الموت ولقد نبّه نيتشه في كتابه زرادشترا : فليظهر المسيحيون وجوه منتصرين على الموت فاؤمن بمسيحهم.

عربون قيامتنا العتيدة هو المسيح الذي صار بالقيامة روحاً محيية ويعطي اعضاء جسده السري حياةً. في التجسد كان للمسيح ملء الروح ولكنه احتفظ به لنفسه. أما في القيامة فصار معين نعمة وحياة، وتصير قيامتنا شركة قيامته. وقيامتنا تظلّ على هذه الأرض ممرّضةً وبدائية ،

إذ الخطيئة لم تمت نهائياً فينا وحولنا. أمّا في نهاية الأزمنة فيكتمل ما يُبدى به هنا.

وإذا ما كان لنا هذا فلأنّ المسيح ليس شبيهاً بنا فحسب ولكنه من جنسنا ولذا يكمّل عمله في الكون وفي البشرية ليبدّلها. وليس ذلك التبديل سوى السير نحو روحانية أكبر تفيض من روحانية المسيح. فلقد وصل الاول. رأس جنسنا: ويجذب الآن الأعضاء رويداً رويداً إلى ان يتمّ عمله. فحياة البشرية والكون معلّقة به. موجّهة اليه وهو يقودها الى ثبات نهائي حيث دخل وحيث لا موت ولا تغيير. فالبشرية بالمسيح تتجدد. وبتجدّدها تضفي على الكون من روحانيتها وتجعله الأورشليم السماوية والارض الجديدة. والكون في مراحل حياة البشرية تلك. كأنه متخصّص في كل نفس متّحدة بالجسد. اذا احبا الله وخلّصها فانما يحب ويخلّص العالم كله.

٥

بما ان قيامة المسيح نهائية فانها عربون خلاص نهائي: تعطي التاريخ معناه وتعطي المغامرة البشرية مغزاها لأنها لا تنبئنا عن حدّها الأقصى فحسب ولكن تعطينا عن توجيهها واساسها الكياني الكلمة الفصل. ولذا نقول ان العالم الذي اشترك بانحلال الانسان في مغامرته السيئة وشطحاته المرية ليشترك ايضاً بتجديده إذ انه يحمله إلى تطوير عمودي يتأصل فيه في اعماق النعمة التي مبدؤها المسيح المنتصر. إذاك تظهر وحدة الكون والبشرية في انحلالها وفي تجديدهما إلى ان يصلا، في العالم الذي لا يزول، الى روحانية شفافة، هي من روحانية الحائز بالموت بمثابة الجدول المتفرّع من النهر الجارف.

اذ كيف نعتبر الكون إلّم نره من خلال ضمير الانسان حيث تقليله أو تمجيده؟ إنسان سبّب في الكون بلبلة وشقاقاً وعداوة. إنسان أعاد للكون اتزاناً وصفاء وصورة الله لأنه رئيس الكائنات العاقلة ومحور الخليقة الجامدة. وارادة الخلاص تتجاوز الانسان الخاطئ لتشمل السماء والارض. والمسيح الوسيط، وسيط سلام وآلة وحدة جبّارة كانسان، في ملء الأزمنة. ودور المسيح الكوني هنا هو بدء المصالحة بين الوثنيين والله وبدء اجتماع اليهود والأمم في جسد سري واحد. وهذه المصالحة أعطاها المسيح بتجسده

أساساً وكمّلها بصورة خفيّة حقيقية في قيامته ؛ وأقامها منتصرة أمينة في عودته الممجّدة . يقول القديس امبروسيوس : قام بقيامته الكون وقامت بقيامته السماوات وقامت بقيامته الأرض »[١] .

لن ننسى اذاً دور التجسّد والفداء والقيامة في الكون ولكن التأثير الاول هو في البشرية . وتبديل الكون ليس الا نتيجة تمجيد وتجديد البشرية. لا العكس . فعظمة الإنسان ليست جزءاً من الكون ولكنها هي علّة وجوده . ومع ان الظواهر لا تنبي عن ذلك فان الكون رهين الإنسان لا الانسان رهين الكون . واذا ما بدّل المسيح المنتصر قلب الانسان بانتصاره على الخطيئة وباعطائه محبة وحياة الله فانه يكون قد مهّد السبيل بعمله هذا الأساسي ، لعودة الكون إلى خدمة لا عداوة ؛ والى كمال لا انزلاق ؛ الى الصفاء ميزته الخاصة عندما يد الله ابدعته وذلك في الكلمة منذ انشاء العالم[٢] .

القسم الثالث

للتجسد والفداء والقيامة دور جرّبنا ان نحلّله . ولكننا نظلّ هكذا بعيدين عن ايفاء الموضوع حقّه إلّم نحلّل ايضاً موقف البشرية ازاء عطية المسيح يسوع.

لا تظنّن أن التجسد يكتمل بسير البشرية الى رأسها المسيح . إذ منه امتداد ثروات الحياة الإلهية في الأعضاء ، تلك الثروات التي نجدها في الكلمة الذي صار إنساناً وقدم نفسه عن البشر ذبيحة تكفير . فاعمال المسيح كاملة مطلقاً كمال الينبوع أمام الجداول ؛ كمال السبب الاول امام المسبّبات ، كمال الله أمام الموجودات التي لا كيان لها الا به .

فلا حاجة للمسيح في ان يتم الانسان دعوته الروحية . ليس بحاجة إلى الكون كي يجلس هو في السماوات من عن يمين الآب . بل الانسان

(١) S. Ambroise : *de excessu fratis sui* L. 2, P. L. 16/1354. Cf. Cyrille de Jérusalem, *Catéchèse*, 15, c. 3-4. P. G. 33/873ᵃ, 875ᵃ etc.

(٢) Grég. le Grand écrit: « Terra et caelum... per eam quam nunc habent imaginem transeunt... Erit caelum novum et terra nova. Quae quidem non alia condenda sunt, sed haec ipsa renovantur » (*Moralia in Job*., L. 17, c. 9, n. 11, (P. 76, col. 16).

بحاجة الى الكون والى المسيح اذ انه لا يستطيع ان يكتمل دون ان يضطلع الكون ويركز فيه . ذلك الكون الذي تربطه به صلة حياة وطبيعة . والانسان بحاجة الى المسيح كي يقوم بدوره تجاه الكون فيقوده الى هدفه اذ هو نال هو نفسه غايته الروحية .

والكون بحاجة الى الانسان والى المسيح ليكمّل دعوته بدعوة الكائن البشرية ورأسه .

لقد يخلص المسيح شخصياً وانتصر على الموت وجلس عن يمين الآب ولا شيء من مجده . ولكن سؤالنا يشكّكنا هنا في ان نرى اذ كان الانسان سيتركه بطاعة كلية ويقبل تمام فعّالية حياته ومجده الارضية وبركاته السماوية .

فسؤالنا ليس عن مصير المسيح ولكن عن مصير البشرية بالذات التي يريد المسيح ان يجعلها جسده السرّي . سؤالنا عن عمل المسيح لا عن المسيح نفسه . انما الأعضاء التي ترتبط بصورة حيوية بالرأس تكوّن وحدة معه . فانها وإن تميزت في شخصيتها الخاصة عن طبيعة المسيح البشرية. فا في المسيح . في شخص المسيح اكثر مما نعلم من كيان في الله . هذا هو سر المسيح في اعماقه يمتد رويداً رويداً في حياته الشخصية وفي حياته الجماعية على مرّ التاريخ .

سؤالنا اذاً موجّه لكل فرد من افراد البشرية وعلى كل أحد ان يختار الموقف السلبي او الموقف الايجابي .

لا تشكيّن ان التجسد لم يتم ولن يتم إلا بالوحدة الحيوية بين الاعضاء والرأس . كان التجسد كاملاً عندما حبلت مريم من الروح القدس واتخذ الكلمة طبيعة بشرية اعطاها أن تتحد به وأفاض من تلك الوحدة الكاملة نعماً غزيرة ملكته القلوب وملأتها من محبة الهية صافية . فبهذه النعمة وبتلك المحبة يتم سرّ المسيح رويداً رويداً وبصورة تطورية وحسب ارادة الافراد واختيارهم . ولن ننسى ان القيم البشرية هي ايضاً تمتد رويداً رويداً في التاريخ لتعطيه وجهاً إنسانياً . وان كان المسيح تطوّر في مراحل حياته الارضية فالبشرية تتطوّر ايضاً لتصل يوماً إلى ان تلبس المسيح على حد كلام بولس الرسول .

المسألة اذاً هنا هي في تطوّر القيم البشرية في التاريخ .

فعالية القيم في الجواب الذي نعطيه للحياة. في الحرية التي تمارس حقوقها ومسؤوليتها. بها تتم القيم وتصير هي القيمة الكبرى. فالانسان بجدد يعطي القيمة ان تكون فعالة ومنتجة.

ولذا فان الفضيلة التي تحييها المحبة هي التي تعمل لتقدم الضمائر والشخص البشري وفي الوقت نفسه للتقدم البشري بالذات فلا تقدماً بشرياً صحيحاً الا بصلته بالتقدم المسيحي ومعه.

فاذا ما تطورت القيم البشرية تصاعدياً على مر التاريخ بصلتها بشعب الله على الارض وتحت تأثير المسيحيين الحقيقيين فذلك يعود كل تطور بشري لخير المسيح وملكوته في العالم الحاضر والعالم العتيد.

بالحرية الانسانية إذاً يتعلق كل شيء على هذه الأرض. بها اذا اردنا. نستطيع ان نمر من صعيد الحياة الدنيا الى صعيد الحياة الالهية إذ الغاية المسيحية حاضرة لكلّ من يريد: ونعمة الله لا تغفل ابداً. وتلك الغاية لا يشترك بها نهائياً الا مجموع البشر الذين أخضعوا إرادتهم للارادة الالهية وهم المختارون. هم الذين عملوا الجهد كي يوسعوا نطاق انتصار المسيح على البشرية وكي يقيموا الحياة البشرية بصلتها بنعمة المسيح. فالمسيح: إذ جمع فيه الإنسانية كلها: نفساً وجسداً مع الابعاد الروحية الجسدية والانفعالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تتأثر بها، ترك لكنيسته ان تحقق هدفه في التاريخ وفي البشرية السائرة إلى غايتها. فتكون الخميرة في العجين، قوة تطوير وأساس البقاء. وما ذلك الا لأن المسيح أخذ على عاتقه الانسانية بكاملها مع آلامها وافراحها وخلاصها.

على الخميرة ان تعطي العجين قوة وتحفظه من الفساد. على الملح ان يملّح. فالكنيسة كالدين وكالنعمة تستند الى الطبيعة ولا تنفصل عنها. وانها لترى خيراً في تقدم العلم وتطوير التقنية وغزارة الاكتشافات اذ ان كل ذلك خدمة المحبة والمختارين. والتفاؤل المسيحي يطلب ان تعمل بجرأة وفرح لتحسين أوضاع الحياة إن العقلية او الروحية او المادية. وهو أمين أن كل ذلك ليزيد في القيم البشرية إذا اراد الانسان ذلك مختاراً، وبالتالي في سيره نحو غايته المطلقة. اذا انبرى في فهمها وفي ترديد طلبات الأبانا: لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض.

الختام

هذا بعض الشيء من موضوع يتطلّب كتباً. حلّلنا معنى ودور التجسّد والفداء والقيامة وقلنا إنها حدث فريد فيه كمال النعمة بكمال الوحدة والتجديد. وبكمال النعمة الكمال للانسانية وربما للكون لو ارادت.

فعلى الانسانية ان تسير في طريق النعمة والمحبة وان تتقدّس القلب وتطهّر وتغيّر القيم الطبيعية بالغاية الفائقة الطبيعة. فتصير الوحدة ويصير التجديد. وحدة المختارين الذين يريدون ذلك مع المسيح لأنها منه لمن يريد.

ومثلنا في هذا الختام مثل الشجرة التي تنمو وتزدهر وتصل الى غايتها وان تساقطت منها ثمار غزيرة فلا ضير عليها من ذلك. فالانسانية تنمو في المسيح وتتجدد ولا ضير عليها اذا ما ابتعد عن حيوية المسيح عضاء فضّلوا الموت على الحياة والمادة على الروح فانها تسير الى النقطة اوميغا حيث الكمال في المسيح وفي كنيسته ارجاؤها تفيض على الحدود الخارجية التي تراها كتب لها الانتصار بعد الذلّ والهوان في هذا العالم.